الفصل الثاني

عوامل نشوء
وتطور المناظرة

المبحث الأول:

المناظرة والمصدر الخطابي

منذ الإشارات الأولى لأرسطو في كتابه **فن الشعر**، ومرورا بإسهامات النقد الطبيعي وجهود الشكلانيين الروس، ووصولا إلى الشعرية الحديثة، رسخ الاعتقاد بأن الأنواع المعرفية والأجناس الأدبية لا تلزم وضعا ثابتا، فهي تتحول وتتوالد، مما يقودها إما إلى تعقيد متزايد في بنيتها أو إلى انبثاق أنواع أخرى عنها. وفق منطق التحول هذا، يمكن اعتبار المناظرة استمرارا للخطابة عند العرب وتطورا عنها.

لقد ازدهرت الخطابة في العصر الأموي بفعل التناقضات المستعرة بين الفرق السياسية، ونتيجة تنازع شرعيات متباينة حول الحق في الخلافة، وكانت غاية السلطان تدفع كل طرف إلى الاستعانة بالنص الديني وتأويله، انتصارا لمذهبه ودحضا للمناوئين، فكانت الخطابة تجسيدا للاختلاف وتنوع الآراء في السياسة والدين. مما جعل "هذه الفترة من أهم الفترات الخصيبة في تاريخ الثقافة الإسلامية في وضع القول في مواجهة إمكاناته، واكتشاف ما للغة من قدرة على قول الشيء ونقيضه وإمكانية أن يقوم الرأي والرأي المضاد"[1].

من صلب هذه الخطابة التي كانت تعوض أحيانا كثيرة حد السيف، بفعل تحول العديد من الفرق السياسية عن العمل الميداني/ الحركي إلى المجال الفكري والكلامي، ونتيجة للانفتاح الثقافي الواسع الذي رفد العقل العربي بآفاق معرفية جديدة، انبثقت المناظرات، وهي حسب الدكتور شوقي ضيف "فرع مهم من فروع الخطابة"[2].

لقد كان لبيئة الفقهاء والمتكلمين ومجادلاتهم أثر قوي في إكساب الخطابة طابعا عقليا وحجاجيا، حولها إلى مناظرات ساوقت النشاط المعرفي الجاري آنذاك. ولذلك اعتبر الدكتور محمد العمري، أن تطور الخطابة الدينية قاد إلى

(1) حمادي صمود: "مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح"، مذكور، ص 28.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، (د.ت) ص 65.

تشكل ثلاثة أصناف صدرت عنها، وهي تختلف حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه، يقول: "فهو [أي المتلقي] إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه، وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيا لما تعلم غافلا عما ينتظره فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب، وتلك هي الخطابة الوعظية، وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب، وفي هذه الحالة لا بد من المحاجة والبرهنة، وتلك هي الخطابة الحجاجية أو المناظرات"[1].

بحسب هذا التخريج، فإن المناظرة خطابة حجاجية، تسائل جحود المخاطب، الذي يفترض فيه أن يكون ملما بالموضوع عالما به، ولكنه منكر لموقف مناظره بخصوصه. وهكذا فإذا كانت الخطابة بشكل مطلق تستهدف الجموع والعوام، فإن المناظرة خطابة الخاصة، وهو الأمر الذي تفسره المجالس المغلقة التي شكلت فضاء المناظرة، بحيث يكون الحضور مقصورا على العلماء والمتخصصين والأدباء... ومن ثم، فالمناظرة خطابة فكرية ومذهبية جسدت الحركة المعرفية التي سرت بشكل دينامي في المجتمع العربي الإسلامي، حين عوضت المجادلات العقلية وقوة الحجة في البيئة العباسية حدة اللسن الخطابي لدى ولاة وقواد الأمويين، مثل (الحجاج بن يوسف الثقفي، وزياد بن أبيه...).

إن ما يثبت الارتباط القوي بين المناظرة والخطابة أن رؤوس المناظرة وعلم الكلام، بحسب ما يروي الجاحظ في **البيان والتبيين** كانوا جهابذة خطابة. فواصل بن عطاء رأس المعتزلة قادته خطابته البليغة وتمكنه من نواصي القول، إلى إحكام فن المناظرة والتفوق فيها، يقول شوقي ضيف بهذا الصدد: "والحق أن واصل بن عطاء يعد رمزا لكل ما أصاب عقل الوعاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوراته فحسب بل أيضا في آرائه"[2]. وفي مجلس الحسن البصري شحذت المجادلات الكلامية الألسنة والعقول، لتجعل من الخطابة مناظرة

(1) محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، دار الثقافة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1986، ص 36.

(2) شوقي ضيف: العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة، 1963، ص 442.

قوامها الجدل والمحاجة، فكانت الحصيلة أن "الخطابة العربية تطورت تطورا واسعا بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين، إذ دعمت فيها الأدلة ودقت المعاني، واستتمت شعبا كثيرة من خفياتها ودفائنها"[1].

إن الوعاء الجامع بين الخطابة والمناظرة هو الخاصية التداولية التي تجعلهما مرتبطتين بمقامات فكرية واجتماعية.. كما يشتركان في الخاصية الجدلية التي تجعلهما يتوخيان الإقناع، إلا أن المناظرة عكست تطورا لاحقا لفن الخطابة. إنها خطابة مشبعة بالمحاجة الفكرية والمذهبية، لذلك سيكون من المناسب اعتبارها خطابة الرقي العقلي ومجتمع المدنية والعمران.

(1) نفسه، ص 443.

المبحث الثاني:

المناظرة والمصدر القرآني

يعتبر القرآن النص المؤسس في الثقافة العربية الإسلامية، فمنه انطلقت ومن خلاله تبلورت جهودها وإسهاماتها، وهكذا فإن التحول الجذري الذي أحدثه القرآن في مجالات الحياة والوعي والقيم لدى العرب، جعلهم ينسجون على منواله كل نتاجاتهم، حتى أصبحت حضارتهم في مناحيها المتعددة مدفوعة وموجهة بمفعول الوحي[1]. إن هذا الحدث الأكبر في تاريخ العرب، سيغدو "القطب الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية والعقائدية للمسلمين، ومنطلق تلك المجهودات وغاياتها في نفس الوقت"[2].

لا غرو أن تخضع المناظرة بوصفها منهجا وشعبة معرفية تراثية لعوامل هذا السياق، فلقد استمدت من القرآن مقوماتها وبناءها. ذلك أن القرآن الكريم في إقراره لتصورات وقواعد الإسلام قد انتحى سمتا جداليا، سواء في حواره مع المشركين أو مع الملحدين أو مع المنكرين للمعاد أو المنكرين للنبوة أو مع أهل الكتاب. وقد شغل هذا السمت مساحة واسعة في القرآن توخيا للإقناع، وتركيزا للتغيير الشامل الذي أقره الإسلام، وردا على التحديات العديدة التي واجهته. وقد وردت الإشارة في القرآن لكلمة "الجدل" في سبعة وعشرين موضعا، كما استعمل القرآن الكريم لفظ "الحوار" في ثلاثة مواضع وهي:

- ﴿... فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف، الآية 34].

(1) انظر عباس ارحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 40، مذكور، الصفحات 38-39-40.

(2) حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، مذكور، ص 34.

- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف، الآية 37].
- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة، الآية 1].

وقد كانت الغاية من التبئير على هاتين القيمتين "أن تدخل الفكرة وعي الإنسان بعمق، وتقتحم أفكاره بقوة. ولهذا طرح الإسلام، في القرآن الكريم، جدال الإنسان وحواره الذاتي مع نفسه إلى جانب جداله مع مجتمعه، ومع الفئات التي كانت تمثل القوة المعارضة آنذاك"[1]. بل إن الحوار سبق خلق الإنسان بحسب ما يرويه القرآن، فالربوبية لم تمنع من إشراك الملائكة والإفساح لجدالهم حول شأن الاستخلاف في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية 30]. في البدء إذن كان الحوار. ولا يفتأ القرآن على امتداد آيات عديدة يصرح أو يوحي بضرورة الحوار سبيلا في العقيدة والحياة. وقد انتبه الدكتور طه عبد الرحمان إلى أن مادة "القول" قد وردت في القرآن الكريم خلال أكثر من ألف وسبعمائة موقع[2]، بصيغ مختلفة منها 'قال' و'قالت' و'قالوا' و'قالا' و'قلت' و'قلتم' و'أقول' و'تقول' و'تقولون' و'قل' و'قولا'... وهو ما يشكل شاهدا جليا على مبلغ الحوارية في النص القرآني.

وفي المنتهى سيكون الحوار، إذ وفق التصور القرآني، يتاح للمرء يوم الحساب أن يجادل دفاعا عن نفسه تبريرا لخطاياه أو تبييضا لسجله. لا يحرم المرء من أن يجادل ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 111].

ويجد الحوار والجدال أسسهما في القرآن الكريم، من اعتبار الإسلام العقل الوسيلة القوية لتمييز الوقائع والقضايا والأفعال. والتمييز طريقة استدلالية حوارية

(1) محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 17.
(2) طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 21 (هامش).

لا تقوم إلا على الحجة. أكثر من ذلك، فالعقيدة كما يريدها الإسلام، لا يجب أن تنجم عن التقليد، ولكن يحصلها الإنسان بسبيل اقتناعي تجادل فيه بدائل عديدة وتحاور طرق مختلفة تمهيدا للاختيار، ومن ثم، فلا إيمان بدون حجة، ولا مسؤولية إلا بعد إقامة الحجة[1].

وفي استقصائه لخصائص الحوار كما ألح عليه الإسلام في المتن القرآني، خلص محمد حسين فضل الله إلى أن المناخ الطبيعي لهذا الحوار تحكمه شروط خمسة هي:[2]

1. شخصية المحاور الذي يدير عملية الحوار.
2. شخصية الطرف الآخر للحوار.
3. خلق الأجواء الهادئة للتفكير المستقل.
4. المعرفة لموضوع الحوار.
5. أسلوب الحوار.

فشخصية المحاور يجب أن تتوفر على الثقة بالنفس، وعلى الحرية في خوض العملية الحوارية، وعلى القابلية لتحملها وتحمل نتائجها. أما شخصية الطرف الآخر في الحوار، فيجب أن تبتعد عن الجحود والانغلاق والمزايدة مقتنعة بأن الحوار طريق الحق. في حين أن الأجواء الهادئة التي تضمن الحوار المنتج لا تتأتى إلا بالابتعاد عن مناخ الانفعال وحالة العداء المسبقة. فالتفاهم يتحقق بالانفتاح بين المتحاورين، وإنتاجية الحوار ترتفع بقدر اتساع المجال المريح والحر في المناقشة.

وقد ألح القرآن على المعرفة بموضوع الحوار، لأن الاقتناع وليد الوعي، والمساهمة في الوصول إلى الحق لا تتم بالجهل، لذلك يقول تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ هَـؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 66]، ويقول كذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ... إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة غافر، ص 56]. وفي السياق نفسه، يقول تعالى:

(1) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن...، مذكور، ص 31.
(2) نفسه، ص 36.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة يونس، الآية 39].

وواضح أن منهج الحوار الذي يدعو إليه القرآن ينتقد أولئك الذين "يدخلون معركة الحوار دون سلاح، لأنهم لا يملكون علما أو حجة أو إحاطة بالموضوع الذي يرفضونه، مما يجعل من جدالهم ورفضهم قضية مزاج، وعقدة نفسية تتحكم بهم فتدفعهم إلى اللف والدوران تارة، وإلى التكذيب بلا مبرر، تارة أخرى. الأمر الذي لا يؤدي إلى أية نتيجة لحساب المعرفة أو لمصلحة الحق"[1].

أما بخصوص أسلوب الحوار، فإن القرآن نبذ في توجيهاته كل أساليب العنف، داعيا إلى سبيل سلمي مرن قائم على مراعاة المحاور واحترام جانبه، دون ترهيب أو تبخيس. وقد عبر القرآن عن هذا السبيل في الحوار بالتي هي أحسن. وهو ما صرحت به هذه الآيات:

- ﴿... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت، الآية 33].
- ويقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [سورة النحل، الآية 125].
- وكذلك: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 46].

إن اهتمام القرآن بالحوار والجدل وتفصيله للعديد من عناصرهما وشروطهما، جعله مصدرا رئيسيا منشئا للمناظرة ومحددا لقواعدها.

(1) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، مذكور، ص 51.

المبحث الثالث:

المناظرة وعلم الكلام

إذا كان علم الكلام بتعبير ابن خلدون هو العلم الذي "يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات"[1]، فإن الفرق الكلامية اضطلعت بالدفاع عن العقائد، عبر منازلة الطوائف الإسلامية الأخرى التي تخالفها تصوراتها في "الجبر والاختيار وفي صفات الله وفي التجسيم وفي الثواب والعقاب"[2]. كما عملت على منازلة أصحاب الديانات الأخرى درءا لشبهاتهم وتفنيدا لإسقاطاتهم. ولتحقيق هذه المقاصد، لزمت علماء الكلام عارضة قوية في الاحتجاج، ولزمهم كذلك تحكم نوعي في تصاريف القول. لذلك كان اهتمامهم الخاص بالمناظرة بوصفها مهارة تجمع الحجة إلى القول، وحرصهم على تطويرها وإحكامها تطبيقا بل والتنظير لها في مصنفاتهم الجدلية.

إذن، لقطع وإفحام المخالفين، عمد المتكلمون إلى النظر والمحاورة. فالنظر ارتبط لديهم بالبحث في الأدلة وحشد الحجج وبناء المقدمات وتوجيه النتائج، موظفين في ذلك طرقا عقلية في العرض والاعتراض وتقرير الحقائق التي يذبون عنها. أمر تطلب منهم ثقافة واسعة ومختلفة الضروب، تجاورت فيها معرفة الأديان بمعرفة الفلسفة وعلوم اللغة والأدب...

أما المحاورة فجسدها نهجهم الجدالي القائم على التصرف في الأقاويل، والملكة الخطابية القادرة على الرد والإقناع. وفي ذلك يقول الجاحظ: "إن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء"[3].

(1) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، مذكور، ص 363.
(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مذكور، الجزء الأول، ص 357.
(3) الجاحظ: البيان والتبيين، مذكور، الجزء الأول، ص 139.

إن المقتضيات التفاعلية والتداولية التي تطلبها علم الكلام، وآليات النظر والحوار فيه، قد حدت بالمتكلمين إلى إنشاء أسس آداب البحث والمناظرة. لذلك يقترح الدكتور طه عبد الرحمان لعلم الكلام تسمية أخرى هي "علم المناظرة العقدي"[1] وعيا منه بانبناء هذا العلم على هذه الفعالية. كما أن أحمد أمين يورد في إحدى تعريفات علم الكلام أن "مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد"[2]، مما يجعل الاقتران بالمناظرة هوية محددة لعلم الكلام.

ولعل ما يفسر أكثر هذه العلاقة الوثيقة بين علم الكلام والمناظرة، أن كما غزيرا من المناظرات في التراث العربي الإسلامي قد دار حول الموضوعات الكلامية، كما أن أشهر المناظرين هم من المتكلمين. وفضلا عن ذلك، فإن المتكلمين عنوا أيما عناية بالتأليف في مجال الجدل وبناء الأقوال الإقناعية. لا غرو في ذلك، فقد كان "يطلب من المنتمين إليه (علم الكلام) أن تكون لهم قدرة على المخاصمة والمقارعة والظهور على الخصوم بالحجة لبيان فساد رأيهم وتهافت معتقدهم"[3].

لقد تبلور علم الكلام إذن في سياق خلافي، ومن ثم اعتمد السجال والرد، واقتضى الجدل القائم على النظر والتفكير وقوة الخطاب، مما جعله أرضية حاضنة ومطورة لمنهج المناظرة. حتى لقد اختص علم الكلام به وانماز من خلاله عن أصناف معرفية أخرى، يقول أبو حيان التوحيدي: "قلت لأبي سليمان (يقصد المنطقي) ما الفرق بين طريقة المتكلمين والفلاسفة؟ فقال: ما هو ظاهر لكل تمييز وعقل وفهم، طريقتهم (يعني المتكلمين) مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ وموازنة الشيء بالشيء... والاعتماد على الجدل"[4].

(1) طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مذكور، ص 70.
(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مذكور، الجزء الثالث، ص 9.
(3) حمادي صمود: "مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح"، مذكور، ص 24.
(4) أبو حيان التوحيدي: المقابسات، تحقيق وتعليق حسين السندوبي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، جويليه 1991، ص 115.

المبحث الرابع:

المناظرة والمثاقفة

مع توسع الفتوحات الإسلامية، انضوت تحت راية الدين الجديد جملة من الأقوام والأجناس، فيها الهنود والأرمن والفرس والسريان والأقباط وغيرهم... وقد حملت هذه الأقوام معها متخيلاتها وثقافاتها المختلفة فضلا عن تقاليدها الدينية (النصرانية واليهودية والمجوسية وديانات شرقية أخرى...) وأعرافها الاجتماعية. وقد ساهم هذا التعدد في إخصاب التلاقح بين هذه المشارب، وهيأ لشروط التفاعل والتنافس. وحسب الدكتور محمد نور الدين أفاية، فإن دينامية التثاقف هذه "أفرزت معطيات جديدة، تميزت بعض تجلياتها بالتوتر والمواجهة، وتقدمت مظاهر أخرى لتعمق التداخل والتمازج والتبادل بين الجماعات والثقافات واللغات"[1].

إن التوتر الفكري الذي عوض الصراع السياسي والاجتماعي قد وجد تعبيره في الجدل والمناظرة. بحيث شكلت هذه الأخيرة آلية للحكم على الآخر وتجسيدا للوعي به والمقايسة إزاءه. ولأن المتكلمين كانوا بتعبير أحمد أمين "أكبر عامل من عوامل المزج بين الثقافات المختلفة"[2]، فقد توسلوا المناظرة سبيلا لمجادلة الآخر ومناقشته.

وفي سياق هذا المجرى الحواري، الذي ينهض على الحجة والإفحام بديلا عن الإكراه والعنف، دارت أيام المأمون مناظرات حضرها زعماء جميع الطوائف الدينية. كما قدم زعيم "المانوية" يزدانبخت إلى حاضرة الخلافة بغداد، وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين وألزم الحجة فيها. غير أن المأمون لم يكرهه على الإسلام. ثم إن أبا بكر الباقلاني ناظر في عاصمة الروم البيزنطيين علماء

(1) نور الدين أفاية: "الآخر في التصور العربي الإسلامي، في المناظرة وآلية الحكم"، مجلة (الصورة)، السنة الثانية، العدد الثاني، خريف 1999، ص 17.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مذكور، الجزء الأول، ص 380.

النصرانية[1].

وحسب الدكتور شوقي أبو خليل، فقد عقد في المجتمع العربي الإسلامي، مع مطلع القرن الثالث الهجري "حوار أديان، من غير مجاملات أو مداهنات"[2]، وقد ضم هذا الحوار الجاثليق كبير النصارى، ورأس الجالوت زعيم اليهود، والهربذ الأكبر ممثل الزرادشتية وعمران الصابي قطب الصابئة والفيلسوف قسطاس الرومي، وجمع من المتكلمين المسلمين، وقبل ذلك ناظر أبو هذيل العلاف اليهود والمجوس[3]، كما ناظر النظام الدهرية وهم نحلة غير مسلمة، وفي ذلك يقول شوقي ضيف متحدثا عنه "وهو يعد أكبر من جادلوا الدهرية والمانوية"[4].

وقد أشار أبو حيان التوحيدي في كتابه **المقابسات** إلى الحوارات التي كانت تتم في مجلس أبي سليمان المنطقي، أو في الوراقين وهو سوق أمام البصرة في بغداد، كان يتقابل فيه متناظرون من مختلف المذاهب والديانات (نصارى وصابئة ويهود).

لم تكن المناظرة إذن فقط تعبيرا عن مناقشات داخلية أو انشغالات إسلامية/ إسلامية، بل عبرت عن الانفتاح على الآخر، والمقايسة إزاءه. لقد كانت دفاعا عن الذات أمام الآخر، ولكن في الآن نفسه، تواصلا معه ومقابسة منه. إنها شكلت اختبارا فكريا وقوليا لحدود السيادة الحضارية لأمة ناهضة...

إن الاختلاف مع الآخر قد حرك الجدل والمناقشة ومنحهما بعدا فكريا خصبا، وفي ذلك يقول الدكتور نور الدين أفاية: "إن المجهودات الفكرية التي بذلت في عمليات الدفاع المختلفة أعطت للهوية الإسلامية إزاء الآخر أبعادا فكرية واضحة. صحيح أن موضوعات هذه المجادلات لها طابع كلامي ولاهوتي، ويحكمها منطق ديني عقائدي يؤطرها براديغم قدسي ورمزي محدد، ولكن آداب المناظرة التي أنتجتها هذه الردود، مع ذلك سمحت بتنويعات فكرية أعطت للنظرة الإسلامية

(1) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 246.

(2) شوقي أبو خليل: الحوار دائما وحوار مع مستشرق، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق 1415هـ - 1994م، ص 60.

(3) الشريف المرتضى: أمالي المرتضى...، مذكور، المجلد الأول، ص 178 وما بعدها.

(4) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف مصر، الطبعة السادسة 1976، ص 459.

للآخر مضمونا فكريا"[1].

كان طبيعيا أن يقود الاختلاف إلى الحوار، لا غرابة في ذلك لأن "الحوار لا يوجد إلا حيث يوجد الاختلاف"[2]. ومن ثم صح اعتبار المناظرة التجسيد الحي لخطاب الانفتاح في الثقافة العربية الإسلامية، والدليل على أولوية الحوار فيها.

(1) نور الدين أفاية: "الآخر في التصور العربي الإسلامي..."، مذكور، ص 20.

(2) طه عبد الرحمان: "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"، مذكور، ص 20.

المبحث الخامس:

المجالس العلمية ورعاية المناظرة

إن المناظرات المتعددة التي شاعت في التراث العربي الإسلامي لم تكن لتتطور وتكتمل معالمها دون "معاهد" علمية وثقافية حاضنة، تتيح تداولها وتشجع عليها وتجعل سوقها نافقة. وقد شكلت المجالس الفضاء الرئيسي الذي كانت تجري به المناظرات، بأطوارها المثيرة وتنافساتها الحادة.

وإذا كان عرب الجاهلية قد عرفوا في "سوق عكاظ مجلسا مفتوحا"[1] يرتاده المتأدبون والشعراء والمفاخرون... فإن المجالس التي أصبحت تعتمد في ظل الدولة الإسلامية غدت أكثر تنظيما، بحيث ناسبت التقدم الثقافي وحالة المدنية والعمران في المجتمع العربي الإسلامي، وجارت الحركة العلمية الناهضة. ولم تكن هذه المجالس والمسامرات خاصة فقط بالعبث واللهو والغناء، بل أصبحت مخصصة في جانبها الكبير "لإنشاد الشعر أو المناظرات العلمية أو الأحاديث الدينية أو الدنيوية"[2].

ونظرا للقيمة العلمية والسياسية لهذه المجالس فقد كان دخولها صعبا، بحيث يشترط فيمن سيغشاها الكفاءة المعرفية والقدرة العلمية، فضلا عن التوفر على خصال اللياقة والكياسة. ولعل شرط الإلمام المعرفي هو ما عبر عنه المهلب بن أبي صفرة حين سئل: ما خير المجالس؟ فقال: "ما بعد فيه مدى الطرف وكثرت فيه فائدة الجليس"[3].

وإذا كان المجلس حسب تعبير الدكتور علي أومليل هو "مجمع الخاصة"[4]،

(1) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، Introduction de saâd Ghrab, p. 102.

(2) جمال سرحان: المسامرة والمنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجري، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1981، ص 5.

(3) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، مذكور، ص 93.

(4) علي أومليل: "المجالس والثقافة العربية، مجلس أبي سليمان السجستاني"، مجلة (المناظرة)، السنة الثانية، العدد 3، ذو الحجة 1410هـ، يونيو 1990، ص 7.

فإن هذه الخاصة من العلماء والأدباء والمتكلمين والفلاسفة كانت تؤم إما المجالس الرسمية التي تتحلق حول أمراء أو وزراء أو قواد السلطة، أو مجالس غير رسمية تتحلق حول عالم من العلماء.

وقد اشتهر في المجالس الرسمية، مجلس الخليفة العباسي المأمون. وقد أفاض يحيى بن أكثم في وصف هذا المجلس، يقول: "كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء. فإذا حضر الفقهاء ومن يناظرهم من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا أخفافكم ثم أحضرت الموائد وقيل لهم: أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء، ومن خفه ضيق فلينزعه. ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها. فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس. ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون"[1].

وواضح أن المأمون قد أحاط مجلسه العلمي بطقوس خاصة تتوخى الإعداد البدني والنفسي لخلطائه من العلماء تنشيطا لقواهم الفكرية وحفزا لهم على المناظرة المنتجة. ويشير أحمد أمين إلى أن المأمون لما استقر ببغداد عاصمة ملكه أمر أن يدخل عليه أهل العلم حتى يختار منهم الأنسب لمجالسته ومحادثته[2]. لذلك كان مجلسه يعج بأعلام الأدب والفلسفة والفقه والكلام... بل ووجدت الملل الأخرى من غير المسلمين سبيلها إلى مجلسه. ونظرا لقناعته الاعتزالية، فقد استهدف المأمون من مجلسه أن يصبح "مجتمعا علميا له النظر في مسائل الخلاف، وله القول الفصل فيها. وبعبارة أخرى، أراد أن يجعل مجلسه محكمة يتنازع فيها الخصوم وكل يدلي بحجته"[3]. وغير خاف أن المأمون خلال هذه الفترة، كان مستشعرا لجسامة المسؤولية الحضارية التي تضطلع بها الأمة العربية الإسلامية، ففتح في مجالسه أبواب الحوار وشجع على حرية المناظرة في مختلف

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى بها الدكتور يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1422هـ - 2002م، الجزء الثالث، ص 312.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مذكور، الجزء الثاني، ص 57.

(3) نفسه، ص 58.

ضروب المعرفة.

وفضلا عن مجلس المأمون، اشتهر ضمن المجالس الرسمية كذلك مجلس عضد الدولة البويهي[1]، والذي سيسطع فيه نجم أبي بكر الباقلاني[2]، إمام أهل السنة في زمانه والمنافح الأكبر عن مذهبهم. وإذا كان المأمون قد اختار أن يعقد مجالسه يوم الثلاثاء، فإن عضد الدولة البويهي اختار لها يوم الجمعة. وقد خصص هذا السلطان مجلسه للمناظرة، وجمع فيه أهل العلم، يتولون بالمناقشة والتداول ما يعرض أمامهم من مسائل.. وفي ذلك يحكي أبو عبد الله الأذري، فيما نقله السكوني في **عيون المناظرات** أن عضد الدولة "كان محبا في العلوم راغبا في مناظرة العلماء في مجلسه فصنع لذلك إيوانا فيه جميع الفرق وأصحاب النحل والملل"[3].

وحسب الباقلاني، فإن مجلس هذا الملك كان له وقت معلوم في اليوم. وهو مجلس مهابة لا يحضره العلماء فقط، وإنما رجال الدولة من حجاب وقضاة ووزراء، كما يوضب على نظام خاص يوافق مقامات الحاضرين ومجرى المباحثة والتناظر. وفي ذلك يقول: "فلما دخلت حضرة الملك استقبلني رئيس الصوفية وما رأيت بشيراز مثله، وهم خلق كثير صوفية، فدعا لي وافترقنا، فلما كان الغد لبست ثيابي ودخلت على الملك. وكان يعقد بين الظهر والعصر للعلماء ويرفع الحجاب والبوابين، ويدخل كل صاحب طيلسان، والملك على سرير، والناس قعود على يساره وفوق الكل قاضي القضاة بشر بن الحسين"[4]. وقد كان كل من المأمون وعضد الدولة يتدخلان في المناظرات ويوجهانها ويحرصان على أن تؤول نحو فوائد تطور المعرفة وتدفع بمسارها. يقول عضد الدولة مخاطبا شيخ معتزلة بغداد الأحدب وأبا بكر الباقلاني: "وما جمعتكم إلا للفائدة، لا للمعاندة وما لا يليق بالعلماء"[5].

(1) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 236-237.
(2) نفسه.
(3) نفسه، ص 236-237.
(4) السكوني: عيون المناظرات، مذكور، ص 238.
(5) نفسه، ص 240.

أما في المجالس غير الرسمية، فقد اشتهر مجلس أبي سليمان السجستاني، وهو المجلس الذي كان يتردد عليه أبو حيان التوحيدي، مع أصحابه للمناظرة والبحث والمقابسة، وحسب الدكتور علي أومليل، فإن هذا المجلس "مجلس مستقل لا يجمع أصحابه إغراء المال لأن السجستاني كان فقيرا، وهو مع ذلك مجلس ينافس بفضل نوعية المترددين عليه مجالس الأمراء"[1].

ووفق المادة الفكرية والإخبارية المتوزعة في **الإمتاع والمؤانسة**، فإن هذا المجلس اتسم بحيويته، واحتضن لحظات قوية من تاريخ المناظرة. وقد كان رواد هذا المجلس من المشتغلين بالفلسفة، وفيهم تراجمة كانوا ينقلون عن السريانية الطب والفلسفة اليونانية، فضلا عن مسيحيين... ولعل طبيعة المجلس دالة على الحرارة التي كانت تسري فيه، وعلى جو الحوار الجريء الذي كان يسوده.

إن المجالس سواء منها السلطانية أو تلك التي التأمت حول علماء، قد تعهدت بشكل خاص المناظرة بحيث شجعت عليها وأغرت العلماء بها. وفي هؤلاء العلماء من كان يبحث عن موقع في حاشية السلطان، وفيهم من كان يخامره طموح الارتقاء الاجتماعي، وفيهم من كان ينشد مكانا بين النخبة وأصحاب النفوذ المعرفي. وقد ربحت المناظرة من ذلك تطورا كبيرا، ونفوذا على الشعب المعرفية الأخرى. لذلك يقول أحمد أمين: "على كل حال كانت هذه المجالس والمناظرات سببا كبيرا من أسباب الرقي العلمي، فقد حفزت العلماء للبحث والنظر، وحملتهم على الجد في تصفية المسائل حتى يظهروا في هذه المجالس مظهر الخبير الثقة الدقيق النظر، وحتى لا يفشلوا، فيكون في هذا الفشل القضاء عليهم، كان العلماء يطيلون النظر ويعدون العدة الطويلة لمثل هذا الموقف"[2].

(1) علي أومليل: "المجالس والثقافة العربية..."، مذكور، ص 8.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مذكور، الجزء الثاني، ص 59.